مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 3 (رت 72) السنة: 2023

التخيُّلُ التّاريخيُّ: أو الطريقُ الثالثُ بين الروايةِ والتّاريخِ
قراءة في رواية "مخطُوطُ بطرسبورغ " للروائي السوري – الكُردي جان دوست

Historical imagination: or the third way between the novel and history A reading of the novel "The Petersburg Manuscript" by the Syrian-Kurdish novelist Jan Dost

بن علي لونيس[1]
جامعة بجاية
lounis.benali@univ-bejaia.dz

تاريخ الوصول 2022/07/20 القبول 2022/11/12 النشر على الخط 2023/03/15
Received 20/07/2022 Accepted 12/11/2022 Published online 15/03/2023

ملخص:
تُحاول هذه الدراسة الكشف عن تمظهرات التخيل الروائي في رواية " مخطوط بطرسبورغ"، وهي رواية تدور أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدا حول حيثيات كتابة مخطوط ألفه أحد علماء الأكراد المسمى (الملا محمود البايزيدي) بطلب من القنصل الروسي (أوغست جابا)، ثم التركيز على علاقتهما. سنحاول أن نجيب عن السؤال التالي: فيما يتجلى البعد التخييلي في هذه الرواية؟ وما الذي أضافه للتاريخ؟ لاسيما وأنّ شخصياتها وأحداثها تاريخية وحقيقية. ستنفتح الرواية على قضايا كثيرة، منها: علاقة المعرفة بالقوة، وعلاقة الشرق بصراع الامبراطوريات حول مناطق النفوذ، ودور الاستشراق في هذا الصراع.

الكلمات المفتاحية: تخييل، تاريخ، امبراطورية، استشراق، معرفة.

Abstract:
This study attempts to reveal the manifestations of fictional imagination in the novel "The Petersburg Manuscript", a novel that revolves around the end of the nineteenth century, specifically about the reasons for writing a manuscript written by a Kurdish scholar named (Mullah Mahmoud al-Bayzidi) at the request of the Russian Consul (Auguste Gabba), Then focus on their relationship. We will try to answer the following question: What is the imaginary dimension in this novel? And what did he add to history? Especially since its characters and events are historical and real. The novel will open up on many issues, including: the relationship of knowledge to power, the relationship of the East to the struggle of empires over areas of influence, and the role of Orientalism in this conflict.
Keywords: fiction, history, empire, orientalism, knowledge.

[1] المؤلف المراسل: **بن علي لونيس** البريد الإلكتروني: **lounis.benali@univ-bejaia.dz**

1. مقدمة:

ما يميز رواية "مخطوط بطرسبورغ" للروائي السوري – الكردي "جان دوست" أنها حاولت الكتابة عن سيرة أحد أهم علماء الأكراد الذي ألف أهم كتاب عن تاريخ الشعب الكردي، ثم علاقته بالقنصل الروسي الذي يمثل سلطة الإمبراطورية الروسية، لكن باللجوء إلى شكل فني تجريبي وهو أن يمنح الصوت للأشياء لتسرد سيرة الرجلين معا. فهذا الشكل الفني قد فتح السرد على مستويات من التخييل، طرحت أمامنا الكثير من الأسئلة: هل الغرض من سرد الأشياء لسيرة الرجلين الوصول بالسرد إلى مستويات عالية من الموضوعية، طالما أنّ النهر أو أعمدة المسجد والقصر والشجرة لا تمتلك العواطف والانفعالات التي تؤثر لا محالة على موضوعية السرد؟ والأهم من هذا السؤال هو كيف وظّف الروائي هذا البعد التخييلي في الكتابة عن موضوع تاريخي جد حساس، وهو حيثيات كتابة أهم كتاب تاريخي عن ثقافة الشعب الكردي، وعلاقة كاتبها الملا محمود البايزيدي بالقنصل أوغست جابا، وعلى أي مستوى أبرز هذه العلاقة؟

2 – في مفهوم التاريخ

إنّ الاهتمام بهوية شعبٍ من الشعوبِ يكون بتدوين تاريخِه، وتأريخ ماضيه ومآثره باللجوءِ إلى الكِتابةِ التاريخية التي تعتمِدُ على الأرشيفِ المادي وغير الماديّ؛ وبداية التأريخِ هي دائماً لحظة انبثاق "الوعيِ"، أي بتعبير المفكِّر المغربي "عبد الله العروي" انبثاق لوعي سابق بالتّاريخِ.[1]

غيرَ أنَّ التّاريخَ وحده لا يكفي لبناءِ وعيٍ قوميّ بالهوية الجمعية، إذ للحكايات والقصص والأساطير وغيرها من السرديات الخيالية دورٌ حاسِمٌ في هذا المسعى، وقد لا نُبالغ إذا قُلنا بأنّ للسرد الخيالي – الفني الأثر الأكبر في تشييد الهويات القومية، التي هي في آخر المطاف هويات سردية. أليس التاريخُ نفسه سرديةٌ تلتجئُ إلى اللغة، وإلى تشييد القصص عن الأحداث الكبرى وعن الشخصيات المؤثّرة التي كان لها الدور في صناعة هذه الأحداث؟ يقول الناقد العراقي "عبد الله إبراهيم": ((فكلّ أمّة أو جماعةٍ، وهي تسرد تاريخها، لا تستطيع أن تتخلّصَ من نسيجِ الحكاياتِ حول ماضيها ومزج الخيال بالواقع. ثمّة علاقة جدلية بين تاريخ الأمة والحكايات المتخيّلة الداعمة لها، وعن ذلك تنتج الهوية السردية الجماعية؛ لذا فإنّ التاريخ يصبح قصة مروية، وتصبح القصص التي ينسجها خيال أمة تاريخا)).[2]

يقيم "عبد الله إبراهيم" رؤيته لفكرة "الهوية السردية" على هذه العلاقة الجدلية بين التاريخ والخيال، على نحو يبدو أنّه من الصعب الفصل بينهما؛ ذلك أنّ التاريخَ يتحوّل إلى قصة بمكوناتها الفنية، وفي المقابل تتحول القصص والحكايات التي هي من نسيج المخيلات المبدعة إلى جزء من تاريخ الأمّة. فهل يُمكن تجريد التاريخ الإغريقي من أساطيره مثلاً؟ إذ تحوّلت هذه الأساطير، إلى سرديات تأسيسية لهوية الإغريق.

---

[1])– عبد الله العروي، مفهوم التّاريخ: الألفاظُ والمذاهبُ والمفاهيمُ والأصولُ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط05، 2012، ص200.

[2]) – عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي: السرد، والامبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط01، 2011، ص07.

يقول الناقد المغربي "محمد معتصم" معرّفا (التاريخ): ((سُمي التاريخُ كذلك لأنّهُ يقوم على تدوينِ الوقائعِ والأحداثِ المميّزةِ لفترة تاريخية معيّنةٍ، وقد ارتبطت تلك الوقائع والأحداث بشخصيات كان لها دور أساسي في تحويل مجرى التاريخ)).[1]

والغرض من تدوين أحداث الماضي وسير شخصياته هو الحفاظ على الذاكرة الجماعية من النسيان، وكذلك التعلم من دروس الماضي ومن أخطاء الذين سبقونا. إلاّ أنّ أسئلة كثيرة تواجه المؤرخين ونقاد التاريخ، ومنها: من الذي يكتب التاريخ؟ وما الذي يُكتب من التاريخ وما الذي لا يُكتب منه؟ وما هي أدوات ومنهجيات التأريخ؟ ثم هل من الأجدر بنا أن نتحدث عن التاريخ أم عن خطاب عن التاريخ؟

لا تبدو الإجابات عن هذه الأسئلة بسيطة، بل هي أسئلة تُبرز إلى أيّ مدى يكون التاريخ ملغماً، كما لو أنّه أرض رملية يصعب السير فوقها دون خطر أن تسحبك الرمال إلى أعماقها. دعونا أولا نتحدث عن مهنة المؤرّخ؛ يقول "العروي": ((تجتمع في المؤرّخ، حسب التعريف، الصفات المشتقة من الحفظ والحضور والنظر والشهادة)).[2]

سيوحي هذا التعريف إلى أنّ المؤرخ شخص موضوعي لأنه يحفظ وينظر ويحقق. وهذا في تصورنا لا يعطي الصورة الكاملة عنه، لأسباب عديدة، أهمها أنّ المؤرخ يأتي بعد الحادثة التاريخية، أي أنه ليس شاهدا بالضرورة على حدوثها، بل قد تفصل بينهما قرون من الزمن. أما السبب الثاني، وهو الذي نراه مهما، والذي سيربطنا مباشرة بفن الرواية، أنّ مادة التاريخ هي (الكلمة/ اللغة)، والتأريخ هو تدوين بالكتابة للحادثة التاريخية، وسيلتجئ المؤرخ إلى وضع المادة التاريخية داخل قالب سردي، تتحكم في مفاصله حبكة ما، وشخصيات تتحرك، والأخطر من ذلك "راوٍ" يروي عن الحادثة.

أما السبب الثالث فهو أنّ كتابة التاريخ غير مفصولة عن المؤسسة، سواء أكانت في شكل فلسفة أو مدرسة، أو في شكل سلطة أو نظام سياسي؛ فكثيرا ما يتحول التاريخ إلى أرض للمعارك العنيفة، فالذي يكتب التاريخ يملك تلك القوة في توجيه الحاضر والمستقبل معا. ألا يقولون أنّ التاريخ يكتبه المنتصرون؟

لنتأمّل تاريخ الأمم المستعمَرة، على سبيل المثال، فقد احتجزها التاريخ الذي كتبه الأوروبيون عنها، والذين هيمنوا على الكتابة التاريخية نفسها، من خلال ما ابتكروه من مناهج وآليات لكتابة التاريخ وإعادة صناعته بما يناسب رؤيتهم التي تهيمن عليها إحساسهم بالتفوّق. وقد جسّد علم الاستشراق هذه النزعة في بعدها المعرفي، عندما قام بإعادة تمثيل الشرق غير ذلك الشرق التاريخي والواقعي.

وهنا، تتدخل الرواية في مستويات عديدة؛

أولا: ترسيخ الرؤية الواحدية المهيمنة للرؤية الأوروبية بنزعتها التوسعية والهيمنية، كما مثلتها الروايات الأوروبية التي ساهمت في رسم صور نمطية عن الآخرين من خلال كتابة تاريخهم.

ثانيا: ظهور سرديات مضادة جاءت لإعادة اكتشاف التاريخ من زاوية نظر التابعين، وإعادة تشكيله خارج الرؤية الأوروبية، من خلال ملء الفراغات البيضاء التي ظلت مجهولة أو مسكوت عنها.

---

[1])- محمد معتصم، المتخيل المشترك: الرواية العالمية الجديدة، دار فضاءات للنش والتوزيع الأردن، ط01، 2020، ص 59.

[2]) - عبد الله العروي، مفهوم التّاريخ: الألفاظُ والمذاهبُ والمفاهيمُ والأصولُ، مرجع سابق، 45.

ثالثا: تبحث الرواية عن المعنى، أي تقترح قراءة للتاريخ، بما يخلخل الصورة المكرسة عنه، فهي تقدم تأويلا ما له بما يجعل هذا الأخير مجرد خطاب.

تظلّ الرواية عند التخوم الحذرة مع التاريخ، فهي الفن السردي الذي ظهر ليكون فنا تاريخيا، تسترجع اللغة من خلاله علاقتها بالتاريخ وبالعالم وبالواقع، بعد أن كانت اللغة مسلوبة الروح، محجوزة داخل رؤية كليانية فرضتها الروح اللاهوتية التي هي في جوهرها كيان لا تاريخي. جاءت الرواية في هذه اللحظة التي أرخت لانفصال الإنسان الحديث عن الأزمنة المقدسة واللاتاريخية.

لقد استطاع هذا الفن أن ينخرط في الواقع بكل تعقيداته، ويتماهى في التاريخ بكل حركته التي لا تتوقف. ويزداد حضور التاريخ أكثر في الروايات التي تُوصف بأنها روايات تاريخية، وهو حضور لا يخلو من أسئلة ومن ملابسات كثيرة؛ ما الذي يُمكن أن تضيفه رواية خيالية إلى التاريخ؟ ألا يتعارض الخيال مع التاريخ الذي يحيل إلى ما وقع فعلاً؟

3. رواية مخطوط بطرسبورغ: الرواية لأجل تعويض التاريخ:

لقد استوقفتنا رواية الروائي السوري – الكردي (جان دوست) التي بعنوان (مخطوط بطرسبورغ)؛ والرواية تدور أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر، وتتحدث عن مخطوط ألفه عالم من العلماء الأكراد المسمى (الملا محمود البايزيدي) بطلب من القنصل الروسي (أوغست جابا).

وقبل الخوض في هذا العمل الروائي، يجدر بنا التوقف عند جُملة من المعطيات الجوهرية في تصورنا، والتي ستشكل إحدى مُحرّكات قراءتنا؛

أولا، أنّ الرواية تتحدث عن تاريخ الشعب الكردي، وتحديدا عن فترة تاريخية صعبة تميزت باشتداد الصراعات بين الإمبراطورية الروسية والامبراطورية العثمانية التي كانت تعيش احتضارها المؤجل. وأنا كقارئ، سأعترف بأنّي سأتعامل مع هذه الرواية دون أدنى معرفة بتاريخ الشعب الكردي وبشخصياته العلمية السياسية الهامة، وبذلك سأقف كطرف محايد، إلا في الحدود التي قد تمكنني بعض معارفي العامة في أن أبني موقفا إذا اقتضى الأمر ذلك. إلاّ أنّ السؤالَ الذي نطرحه: هل من الإيجابية قراءة رواية تاريخية من دون امتلاك خلفية معرفية عن الموضوع الذي تتناوله؟ أتصوّر أنّ هذا النوع من التلقي سيتحرر من الأفكار المسبقة، ومن الأحكام التي يمكن أن تلتصق بوعي القارئ فتؤثر على رؤيته، وقد توجّه قراءته وتؤطرها. لكن من جهة أخرى، وبعد بحث صغير عن تاريخ الأكراد، اكتشفنا بأنه شعب مقاوم، ذاد ومازال عن هويته وعن وجوده منذ القرون الماضية، ومازال إلى اليوم كشعب يبحث لنفسه عن هوية تفصله عن هويات كليانية فُرضت عليه تاريخيا. وهو شعب ذاق الأمرّين بسبب الممارسات العنصرية التي تعرّض لها من طرف بعض الأنظمة العربية الحديثة والمعاصرة.

ثانيا، ضرورة الوعي بالطبيعة التخييلية للرواية، على الرغم من أنّ موضوعَها تاريخي، وأنّ أغلب شخصياتها هي شخصيات مرجعية تنتمي إلى التاريخ الواقعي، وهذا الوعي يفرض قلبا في السؤال التقليدي: ما الذي يضيفه التاريخ إلى الرواية؟ إلى السؤال: ما الذي تضيفه الرواية إلى التّاريخ؟

ففي رواية (مخطوط بطرسبورغ) نحن أمام عمل فنّي أساساً، على الرغم من أنّها تتعرضّ إلى موضوع تاريخي يتمثّل في العلاقة التي جمعت بين شخصيتين تاريخيتين وهما: الملا محمود البايزيدي والقنصل الروسي اوغست جابا، والتي أثمرت تأليف كتاب عن تاريخ

وعادات وتقاليد الشعب الكردي. إلا أنّ الروائي أبدع شكلا روائياً هو أقرب إلى التجريب الروائي، وهو ما سنحاول إبرازه في العناصر اللاحقة.

4- الأصوات السردية: التاريخ الذي يُروى من خلال الأشياء:

تتوزع الرواية على زمنين سرديين؛ ما يبدو زمن (الحاضِر) من خلال مدخل سردي على لسان شخصية نفترض أنّها تمثل (المؤلّف الافتراضي) للسردية الثانية التي تنتمي إلى زمن (الماضي). تبدأ الرواية من لحظة البحث عن مخطوط في المكتبة الوطنية الروسية، ويكتسي هذا المخطوط أهمية كبيرة لشخصية السارد، لأنّه بصدد كتابة رواية. نتصوّر أنّ الرواية منذ البداية قد أفصحت عن استراتيجيتها السردية، منذ لحظة إعلانها بأنّ السارد هو روائي يبحث عن مخطوط أُلّف منذ قرن ونصف، لأجل كتابة رواية تخييلية. قال السارد: ((أقصدُ أنّي أعيشُ في زمن الروايةِ. أنا أكتبُ روايةً عن مخطوطٍ ضاع أثرَه. ومن المحتمل أن يكونَ المخطوط استقرّ هنا في المكتبةِ الوطنيةِ الروسيةِ في بطرسبورغ. لأنّ الذي استلمها آخر مرّة كان قنصل الإمبراطورية الروسية في أرضروم منتصف القرن التاسع عشر اوغست جابا)). [1]

وما سيعزز أكثر هذه الاستراتيجية أنّ بعد بحث طويل تحوّل إلى "متاهة"، لم يعثر السارد على هذا المخطوط، فيقرّر أن يلتجئ إلى التخييل لتخيل سيرة هذا المخطوط (؟). ((ربّما أجد المخطوط في الرواية. ربّما تدلني صفحات روايتي التي أكتبها على مصير المخطوط. من يدري. ففي بعض الروايات اجوبة كثيرة لأسئلة تؤرق الإنسان)). [2]

ما يلمّح إليه السارد هو (قوة التخييل) كبديل عن التاريخ عندما يكون الوصول إليه غير ممكنا، كما لو أنّ التخييل يقترح مسارات مختلفة لكتابة سيرة مخطوط تاريخي، وإعادة بناء السياقات الغائبة التي ساهمت في تأليفه، بداية من شخصيتي الملا محمود واوغست جابا، والعلاقة التي تمخضت بينهما، إلى الظروف التاريخية العامة التي عاشها الشعب الكردي، والتي اتسمت بالصراع السياسي والعسكري بين امبراطوريتين، وصولا إلى المآل الغامض للمخطوط نفسه.

ما نريد ان نصل إليه أننا أمام خطاب تخييلي يتضمن خطابا تاريخيا، من جهة أنّ المخطوط هو وثيقة تاريخية حقيقية تضم تاريخا مكتوبا عن الشعب الكردي؛ أي نحن امام علاقة مركّبة بين خطاب إبداعي وخطاب تقريري.

نعود الآن إلى مسألة (الصوت السردي)؛ فالرواية كما قلنا سابقاً ابتكرت شكلا سرديا منفتحا على (التعدد الصوتي)، لكن هذه المرة، سيُروى التاريخ عبر (صوت الأشياء)، ولو أنّنا سنتساءل: وهل للأشياء أصوات؟

سننظر إلى التاريخ عبر الأشياء: رماد حبيبة محمود البايزيدي، نهر دفينا، مدينة كراسلافا، مدينة فيلينوس، المخطوط نفسه، الأسطوانة التاسعة من مسجد القبرة في تبريز، ... إلخ بالإضافة إلى أصوات الشخصيات الآدمية. فهل هناك من دلالة وراء استنطاق الجماد ليسرد تاريخا بشرياً؟

يؤكّد الروائيُّ على مسألة جوهرية، وهي أنّ ما كتبَه هو عمل فني، ورواية خيالية، وأنّ بين الرواية والتاريخ مسافة سنسميها بالمسافة الجمالية؛ صحيح أنّ حضور التاريخ كان لافتا، لكننا نميل إلى تبني مصطلح عبد الله إبراهيم (التخيل التاريخي) بديلا عن مصطلح

[1])- جان دوست، مخطوط بطرسبورغ، منشورات مسكلياني تونس، منشورات الرافدين العراق، ط01، 2020، ص09.
[2])- الرواية، ص16.

(الرواية التاريخية)، ويعني هذا المصطلح:((المادة التاريخية المتشكّلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخيل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي، ولا يقررها، ولا يروج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه وهو من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال، والتاريخ المدعم بالوقائع، لكنه تركيب ثالث مختلف عنهما)).[1]

تنتمي رواية (مخطوط بطرسبورغ) إلى التخيل التاريخي، فحضور الخيال داخل خلفية تاريخية عززه استعانة الرواية بالأصوات السردية المتعددة، والتي تقدم لنا شخصيتين تاريخيتين وأحداث تاريخية من زوايا نظر غير مألوفة، كأن نتعرّف إلى طفولة القنصل أوغست جابا عن طريق نهر "دفينا":((ونحن معشر الأنهار، كما هو ليس معلوما لدى بني البشر، نعرف مستقبل الأطفال من صرخاتهم لحظة يولدون)).[2]

فما هو " غير معلوم " عند البشر، يفصح عنه نهر " دفينا "، وهو ما يحيل على منطق التخييل، وعلى قدرته في استنطاق التاريخ المنسي الذي يقع خارج نطاق وعي الناس به. وقس على ذلك بقية الأشياء التي ستتناوب على السرد في الرواية. على غرار مدينة كراسلافا التي هي مسقط رأس أوغست. وهناك سؤال يطرحه السارد وهو ما دور هؤلاء الرواة في الرواية؟ ((لكننا نرمم، نحن الرواة، ما نراه نقصا في السيرة الذاتية للشخصيات التي تتناول حياتها بهذه الطريقة. نخترع من خيالنا ما يمكن ان يكون حقيقة ساطعة غابت عن بال المؤرخين وكتّاب السير. إنّ الخيال الخلاق يرمم ثغرات التاريخ ثغرة ثغرة، ومتى ما اجتمع الخيال مع التاريخ ظهرت الرواية)).[3]

5 – من يكتب تاريخ الأمم؟

سؤال لازمنا طيلة قراءة الرواية، منذ اللحظة التي التقى فيها القنصل الروسي بالملا محمود، ثم أن طلب منه تأليف كتاب عن تاريخ الشعب الكردي وعن عاداته وتقاليده. تقدم لنا الرواية رؤية ملتبسة عن وظيفة تدوين التاريخ في سياق تاريخي اتسم بصراع محتدم بين الامبراطوريات.

علاقة القنصل الروسي بالملا محمود لا يمكن اعتبارها علاقة بسيطة، لأنها تنفتح على عدة مستويات تأويلية؛

يعمل أوغست جابا قنصلا للإمبراطورية الروسية في أرضروم، اهتمامه بالشرق هو الذي دفعه إلى التعرّف على شخصية الملا محمود البايزيدي، الذي كان من علماء الشعب الكردي. كانت نظرة جابا إلى الشرق تخترقها نظرتان: نظرة رجل يحمل في داخله إرثا من الكآبة والحيرة ممزوجة بأسئلة كثيرة، ونظرة لا ترى في الشرق فضاء ساحرا ورومانسيا، بل أرضا تمزقها الحروب والأطماع.

لا يمكن فصل شخصية جابا عن وظيفته كممثل للسلطة الإمبراطورية الروسية، فقد اختار كردستان لأنها منطقة مثالية لفهم هذا الذي يحدث للشرق؛ فأفضل طريقة لفهم هذا الشرق هو معرفته، فالمعرفة هي جزء من القوة، بل تغلب القوة على حد تعبير القيصر ألكسندر في الرواية، فجهل نابليون، مثلا، بالتضاريس الروسية وبمناخها القاسي هو الذي أدى إلى انهزامه.

---

[1])- عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي، مرجع سابق، ص05.

[2])- الرواية، ص21.

[3])- الرواية، ص49.

كان مشروع جابا هو أن يقنع الملا محمود بضرورة الكتابة عن تاريخ شعبه لصالح الأكاديمية القيصرية في بطرسبورغ، ومن هنا جاءت تسمية مخطوطه بمخطوط بطرسبورغ، فألف رسالة مختصرة في اللغة الكردية سماها بتحفة الخلان، بالإضافة إلى سيرة مختصرة لمجموعة من شعراء الكرد وأسماء بعض العشائر وأماكن سكانها وتعداد بيوتها.

لم يقتنع الملا محمود في البداية بهذا الطلب، خاصة وأنّ علاقته بالإمبراطورية الروسية ساءت بعد أن قتل الروس أخاه في إحدى المعارك. لكن، في الأخير يقبل العرض، قبل أن تساوره بعض الأسئلة اللاذعة: هل يستقيم أن يكتب صفحات عن تاريخ قومه ثم يتقاضى عليها ثمنا؟ من هذا السؤال، تنجح الرواية في التوغل عميقا في هذه العلاقة المركبة بين الشخصيتين. ((لقد انتهى مني، أنا المخطوط الذي اشتغل عليه مدة عامين تقريبا انتهى من عمله الذي كلفه به قنصل روسيا العظيمة مقابل مبلغ مجز من المال وهدايا قيمة. أما أنا فلا أعتقد أنّ المال كان دافعه لإنجاز عمل خطير مثلي، بل إنّ الرغبة في تدوين تاريخ بني جلدته كانت حافزه الأكبر)).[1]

لقاء القنصل بالملا يجسد لقاء الغرب الإمبراطوري بالشرق الممزق الذي ظل منطقة للتجاذبات والأطماع الامبراطورية، وفي هذا المستوى فشلت الرواية في إخفاء هذه العلاقة التي تقوم على أساس مركزية أوروبية في مقابل شرق هامشي يسعى للدخول إلى الحداثة بخطى مرتبكة وغير واثقة. سيتدخل المخطوط ليدافع عن الملا، ويرفع عنه تهمة الكتابة لصالح الإمبراطورية الروسية، وأنّ حافزه الحقيقي هو تدوين تاريخ قومه. لكننا هنا، شاء المخطوط أو لم يشأ، أمام معادلة واضحة تبرز نسقا مضمرا تكشف عن وجه آخر في هذه العلاقة التقليدية بين غرب توسعي وشرق مهزوم وضعيف تجسد في الإمبراطورية العثمانية.

سيجد الملا محمود نفسه في مواجهة رهانات كبيرة، فقد أصبح محط انتقاد من طرف بعض أعيان قومه، مثل الملا يوسف، ففي إحدى ليالي السمر جرى بينهما حوار محتدم، انتهى إلى طرد الملا يوسف من المجلس، بعد أن تمادى في نقده للملا محمود؛ اللقاء كان يختزل رؤيتين متباينتين، لكنهما كشفتا عن عمق التناقض بينهما: نظرة ترى في تدوين التاريخ كتابة هو سقوط في شِراك أعداء الأمة من الغربيين، خاصة وأنّ ما قام به الملا محمود كان لصالح القنصل الروسي، أما هذا الأخير فقد كانت له نظرة مغايرة؛ فالكتابة تحرر التاريخ من سطوة الشفوية: ((التدوين يا بني، التدوين هو أساس المعرفة. لم يهتم أمراؤنا بالتدوين بقدر ما اهتموا بالمنشدين وأغاني الملاحم التي لا تاريخ فيها ولا يمكن بيان الواقعة التاريخية فيها من الحكاية الخيالية. خيال المنشدين واسع مثل دمتهم يا ولدي)).[2]

يكشف الملا محمود عن وظيفة "كتابة" التاريخ، وهي أخذ العِبر من الماضي، وتجنّب الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها الآباء والأجداد. لكنه أدرك جيدا أنّ مشكلة الشرق أنّ التاريخ يعيد نفسه، ولا أحد يتعلم من أخطاء الماضي؛ فقد تتغيّر أسماء الحكّام، لكن الواقع لا يتغيّر.

ما قاله الملا، ينطبق على واقع الشرق اليوم، ولو أنّ هذه اللفظة لم تعد مستعملة كثيرا لأنها تنتمي إلى التراث الاستشراقي، لنقل واقع العرب على وجه التحديد. فرواية مخطوط بطرسبورغ هي أيضا رواية عن أهمية كتابة التاريخ، كمدخل من مداخل الحداثة، وهذا التقليد ارتبط بالغرب الامبراطوري وبالحركة الاستشراقية التي اهتمت كثيرا بتاريخ الأقوام الشرقية.

---

[1]- الرواية، ص139.

[2]- الرواية، ص165.

وبالإضافة إلى ذلك عبّرت الرواية عن الواقع العربي اليوم الذي فشل في تحقيق أحلام النهوض والحداثة، وظل رغم الفرص التاريخية المتاحة يعود إلى نقطة البداية، قد تسقط بعض الأصنام الحاكمة، لكن الأنظمة كانت أقوى، لأنها تمتلك القدرة على التجدد بدل التبدد.

6. خاتمة:

في خاتمة هذه الدراسة، فقد أبرزنا أهمية السرد التخييلي في بناء الهويات القومية للشعوب إلى جانب الكتابة التاريخية؛ فهذه الأخيرة هي أيضا ضرب من السرد تخضع للمؤثرات الذاتية كما أنها تتوقف على حدود إمكانيات اللغة، وما تتيحه الشروط التي تفرضها السلطة والمؤسسة.

كما أبرزنا علاقة الرواية بالتاريخ والتي قامت على تدمير الرؤية الأحادية التي يحاول التاريخ الرسمي ترسيخها كنوع من الحقيقة المطلقة والنهائية؛ إذ تعمل الرواية كفن تخييلي على الكشف عن المستور التاريخي أو المغيب التاريخي، وملئ الفراغات التي تركها المؤرخون.

كما أنّ وظيفة الرواية هي أيضا تأويلية، أي تأويل التاريخ كخطاب مفتوح على تأويلات عديدة، خاصة وأنّ ما تقترحه الرواية هو البحث عن إجابات في الماضي عن أسئلة الحاضر، ولعل رواية جان دوست نحت هذا المنحى التأويلي لأجل فهم جذور صراعات اليوم بين الشرف والغرب بالعودة إلى التاريخ.

لقد بينا في هذه الدراسة أنّ رواية مخطوط بطرسبورغ تطرقت إلى فترة تاريخية صعبة من تاريخ الشعب الكردي، وهي فترة الصراعات بين الإمبراطورية الروسية والامبراطورية العثمانية التي كانت تعيش آخر أيامها، مركزة على مخطوط كتبه أحد علماء الأكراد وهو الملا محمد البايزيدي، الذي ألفه بطلب من القنصل الروسي ، وقد حاولنا أن نكشف عن أهمية الكتابة كعتبة للدخول في الحداثة وفي روح العصر، بعد أن كانت الثقافة رهينة التقاليد الشفوية.

لقد بدأت الرواية من الحاضر، وتحديدا من حكاية السارد الذي كان يبحث عن هذا المخطوط، ولأنه لم يعثر عليه، التجأ إلى خياله لكتابة سيرة هذا المخطوط، وهذه التفاتة فنية ذكية من لدن الروائي تكشف عن دور التخييل الروائي في استكمال فراغات التاريخ.

كما أننا أبرزنا أهمية المعرفة في سياق صراع الامبراطوريات، والدور الذي لعبه الاستشراق في بناء معرفة بالشعوب الشرقية لأجل السيطرة عليها.

7. قائمة المراجع:

1. جان دوست، مخطوط بطرسبورغ، منشورات مسكلياني تونس، منشورات الرافدين العراق، ط01، 2020.
2. عبد الله العروي، مفهوم التّاريخ: الألفاظُ والمذاهبُ والمفاهيمُ والأصولُ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط05، 2012.
3. عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي: السرد، والامبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط01، 2011.
4. محمد معتصم، المتخيل المشترك: الرواية العالمية الجديدة، دار فضاءات للنش والتوزيع الأردن، ط01، 2020.